سندباد مصرى أو جولات فى رحاب التاريخ

دار المعارف بمصر — ١٩٦١

عاد السندباد المصرى (الدكتور حسين فوزى) من سفره الطويل وقد عودنا أن يعود محملاً بالطرائف وأن يشرك قارئيه فى التمتع بلذة الذكرى والفرج بعد الشدة وما عانى من مشقات الطريق . ويحاول الدكتور فوزى أن يخفى ما عانى ، فزعم أن لا فضل له فى هذا الكتاب ؛ إلا أنه رسم خطته ونظم فصوله ، وأضاف أمراً له خطورته فقال إنه نظمه تبعاً لانفعالاته الشخصية بتاريخ بلاده ، وأضاف أيضاً أمراً آخر له خطورته مؤداه أن الحقيقة فى مسائل الرأى بعيدة المنال .

ويقول الدكتور فوزى أنه منذ زمان طويل وهو يطمع فى وضع كتاب على هامش التاريخ يكون صورة من ملحمة هذا الشعب الذى يفخر بأنه واحد من آحاده ، وجاءت ثورة يوليه ١٩٥٢ فأحس فيما يشبه الإلهام بأن فجراً جديداً صحيحاً لا كاذباً قد طلع فى أفق التاريخ المصرى ، وربما كان ذلك الفجر هو الذى أنار له طريقه إلى تأليف هذا الكتاب الذى لم يكن فى الإمكان كتابته قبل أيام هذه الثورة .

وقد وصف الدكتور فوزى نفسه بأنه ليس مؤرخاً ،وإن كان غير مجرد تماماً من الإحساس بالتاريخ ، وأنه اعتمد فى كتابته على الخلجات الروحية التى أشار إليها ، وعلى ما طالع من كتب الأولين والآخرين فى تاريخ بلاده ، وعلى القليل الذى عاشه من ذلك التاريخ بلحمه ودمه وتفكيره ، فكتبه فى بحبوحة الأدب والفن : حرية فى الفكر وتحرر فى الأسلوب . فكتابه أدبى محض ، وطلب أن يحاسب عليه فى حدود الأدب والفن ،إلا أن واجبه نحو حقائق التاريخ اقتضاه

(١) هذا المقال آخر ماكتب المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال بخط يده لهذه المجلة .

أن يذيله بمجمل لتاريخ مصر، ورجا القارىء أن يلقى عليه نظرة سريعة قبل البدء بمطالعة الكتاب على أن يعود إليه كلما دعاه إلى ذلك داع .

ويقول الدكتور فوزى أن دوره كان أشبه بدور المخرج السينمائى الذى لا يكتب القصة ، ولا يستخلص السيناريو ، ولا يضع الحوار ،ولا يصمم الديكور ولا يعمل مع أجهزة الإضاءة ولا يمثل ، ولا يصور ، إنما هو يستخدم كل ما تضعه حرفة السينما وصناعتها وفن رجالها ونسائها بين يديه من ممكنات ، ليجمع ذلك فى صورة تتجلى فى ذهنه أولاً ، وقد ينجح فى تنفيذ الصورة الذهنية وقد يخيب .

ومعنى هذا فعلاً أنه رجع للنصوص، وكوّن منها المادة أوالصورة ، بل إن بعض فصول الكتاب عبارة عن نصوص تاريخية عدلت تعديلاً طفيفاً . ومهمة المؤلف لم تزد حسب قوله عن مجرد ترتيب الوقائع ترتيباً دراميا ، هذا الترتيب الدرامى له أثره فى أسلوب الكتاب، من أوله لآخره ،فى الموضوعات التى أثبت ، والموضوعات التى أهمل ، فى التحول إلى العامية فى بعض الألفاظ و بعض التراكيب .

وسنرى أن الترتيب الدرامى أدى إلى انحراف المؤلف عن قصده : كان قصده أن يكون كتابه كما قال — شعب نامه لا شاه نامه . ولكن الدراما انتهت بأن تكون شاه نامه لا شعب نامه ، فلا تكون دراما إلا حول أحداث جسام — ولا تكون أحداث جسام إلا حول الذين اقترنت اسماؤهم بتلك الأحداث الجسام .

وإليك البيان بأقسام الكتاب الثلاثة : أولاً — الظلام و به مشاهد الفتح العثمانى ، وقدوم الفرنسيين ، وما جرى بين على باشا الطرابلسى والمماليك ، وارتقاء محمد على الولاية ،وترجمة أغنية شعبية تبكى المجندين ؛ ثم آراء المؤلف فيما كان يجب أن يكون عليه الاقتباس فى الحضارة العربية .

ثانياً — الخيط الأبيض والخيط الأسود ومشاهده : ألف عام ،وصراع القومية المصرية ، وثلاث ملكات (أم خليل و بنت الزمار ، أى كليو باطرة . والصعيدية أى حاتشبسوت)، والقيراط الخامس والعشرون .

ثالثاً — الضياء ومشاهده ، من قبل التاريخ ، ومن الحضارة المصرية القديمة .

* * *

ولنبدأ — كما طلب إلينا الدكتور فوزى — بالمجمل فى آخر الكتاب — وهو مجمل جيد حقاً ، وجودته فى أجزائه القديمة أظهر ، فما تعلق منه بالحضارة المصرية القديمة مستند إلى دراسة حقيقية للآثار ، والانفعال هنا مشروع ، وما تعلق منه بالمسيحية فى مصر به أصالة ، وهو مما يجهله أو لا يهتم به الدارس المصرى . ومن صفات المجمل عنايته بهذا الموضوع ، وكلما تقدم بنا الزمن نحو زماننا كلما غلبت على صفة الانفعال ما يضين بالحكم المتزن ، ولا يهدى نحو التقدير الصحيح .

* * *

نحن الفرس . نحن المقدونيين ، نحن الرومان ، نحن الروم ، نحن العرب : المغاربة ، الكرد ، أبناء . فرغانة . وكردستان ، نتوكل بأمر الحرب ... الخ .

أما أبناء مصر فصناعتهم بناء الحضارة ، ولكن ألم يتكون أبناء مصر ، ممن كانوا عرباً ومغاربةً وروماً الخ .

كتاب الدكتور فوزى ممتع لأقصى حدود الإمتاع ، ولكنه خطر لأقصى حدود الخطورة ، وإنا لا نزال نترقب كتابه شعب نامه .

محمد شفيق غربال